

ورسوله جاء ليبلغ رسالة ربه لا كما ألّٰهت النصارى عيسى بن مريم فقال: " لا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ".¹



القراءة الاستشرافية لصحيفة المدينة

(دراسة لنماذج منها)

أ.د. كمال لدرع²

مقدمة:

وثيقة المدينة أو صحيفة المدينة التي وضعها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما هاجر إلى المدينة كانت بمثابة دستور ينظم العلاقات داخل المجتمع الجديد، ويبين حقوق وواجبات المواطنين من المسلمين وغير المسلمين، وترسخ المبادئ والأسس التي تقوم عليها الدولة الناشئة، وتبين قيم المواطنة التي تؤسس لشبكة علاقات اجتماعية قوية متماسكة متكافلة.

لذلك كانت هذه الوثيقة محل اهتمام من قبل الباحثين والدارسين بمختلف اتجاهاتهم واختصاصاتهم لما تضمنته من أفكار دستورية وقيم اجتماعية وأخلاق إنسانية ومبادئ حقوقية.

ومن الذين أثارت الصحيفة اهتمامهم المستشرقون على اختلاف مشاربهم ومواقفهم بين منصف موضوعي، ومتحيز مثير للشبهات والأباطيل.

وقد حاول هؤلاء الغربيون بصفة عامة والمستشرقون بصفة خاصة قراءة الوثيقة وإقامة دراسات حول مضمونها، إما بحسن نية لاستخراج ما فيها من جوانب إيجابية قصد الاستفادة من تجربة المسلمين في تنظيم الدولة زمن

¹ - أخرجه البخاري في صحيحه، رقم : 3445 (المكتبة الشاملة الإلكترونية - الإصدار الثالث).

1- كلية الشريعة والاقتصاد، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر.

الحكم النبوي الراشد، وإما بسوء نية للبحث عما يبدو في نظرهم جوانب سلبية لإثارة الشبهات حول شخص الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلاقة المسلمين بالقبائل اليهودية، وحياة المسلمين داخل المجتمع المدني، كل ذلك من أجل الانتقاص والنيل من دولة المدينة وقائدها.

وهذه الورقة محاولة لدراسة وتحليل آراء بعض المستشرقين حول بعض القضايا الواردة في الصحيفة.

أولاً: النص الكامل للصحيفة:

"بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي ﷺ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم¹ يتعاقلون بينهم، وهم يقدون عانيهم² بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو جُشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وإن

¹ - ربعتهم : حالهم التي أتى الإسلام وهم عليها.

² - العاني: الأسير.

المؤمنين لا يتركون مفرحاً¹ بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداءٍ أو عقل. وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة² ظلم، أو إثم، أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن، وأن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس، وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم، وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً، وإن المؤمنين يُبيء³ بعضهم على بعض ما نال دماءهم في سبيل الله، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى أقومه، وإنه لا يجير مشرك مალأً لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه مؤمن، وإنه من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى وليُّ المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه، وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر، أن ينصر محدثاً ولا يؤويه، وأنه من نصره أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه إلى يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مردّه إلى الله عز وجل، وإلى محمد ﷺ.

¹ - المفرح: المثقل بالديون الكثير العيال. يقال: أفرحه الدّين أي أثقله، قال الشاعر:

إذا أنت لم تبرح تؤدي أمانة* وتحمل أخرى أفرحتك الودائع

انظر ابن كثير، السيرة النبوية، ج:2، ص:321. وجاء ذكر البيت في تفسير البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي ج:7، ص:244 في تفسر قوله تعالى: (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) الأحزاب:72.

² - الدسيعة: العظيمة، وهي في الأصل ما يخرج من حلق البعير إذا رغا.

³ - يبيء: يمنع.

وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، ومواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ¹ إلا نفسه، وأهل بيته، وإن لليهود بني النجار مثل ما لليهود بني عوف، وإن لليهود بني جُشم مثل ما لليهود بني عوف، وإن لليهود بني ثعلبة مثل ما لليهود بني عوف، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته، إلا من ظلم، وإن الله على أبر هذا، وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غير مُضَارٍّ ولا آثم، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها، وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله ﷺ، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره، وإنه لا تجار قریش ولا من نصرها، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دُعُوا إلى صلح يصلحونه ويلبسونه، فإنهم يصلحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين، إلا من حارب في الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم، وإن يهود الأوس، ومواليهم وأنفسهم، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة، مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة.

وإن البر دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وأثم، وإنه من

¹ - يوتغ: يهلك.

خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم أو أثم، وإن الله جار لمن بر واتفق، ومحمد رسول الله ﷺ¹.

ثانياً: مضمون الصحيفة وأهميتها:

إن صحيفة المدينة هي الوثيقة أو الكتاب الذي كتبه الرسول محمد ﷺ لتكون دستوراً يضبط العلاقات العامة بين المسلمين فيما بينهم وبين المسلمين وغيرهم. وقد حوت الكثير من القيم الدستورية¹ والقواعد والمبادئ والتعليمات الشاملة لكثير من مستلزمات الكيان الاجتماعي والسياسي المتماسك. فقد تضمنت قيم المواطنة وحقوق وواجبات المواطنين والمصالح العليا للمدينة كمصلحة الدفاع المشترك عنها والتعاون والتكافل في السلم والحرب. ومحتوى الوثيقة يكشف بحق عن المستوى التنظيمي والسبق القانوني للمدينة المنورة في تلك الفترة التاريخية ودورها الحضاري والثقافي في العالم وأثرها على النظم والتشريعات القانونية في العالم الغربي.

¹ - ابن هشام، محمد عبد الملك، السيرة النبوية، المكتبة العصرية، ط3، سنة 1995م، ج:2، ص:126 إلى 129- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبد الواحد، ط سنة 1396 هـ/1976م، ج:2، ص:321 وما بعدها - وقد ذكر ابن اسحاق هذه الصحيفة بدون إسناد، وذكرها ابن خثيمة فأسنده، جاء فيه: حدثنا أحمد بن جناب أو الوليد، ثنا عيسى بن يونس، ثنا كثير بن عبد الله بن عمرو المزني عن أبيه عن جده أن رسول الله عليه الصلاة والسلام كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار، فذكر نحو ما ذكره ابن اسحاق (ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج:1، ص:198)، وراه أحمد أيضاً قال: حَدَّثَنَا سُرَيْجٌ حَدَّثَنَا عَبَّادٌ عَنْ حَجَّاجٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَتَبَ كِتَابًا بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ أَنْ يَغْفُلُوا مَعَاقِلَهُمْ وَأَنْ يَفْدُوا غَانِيَهُمْ بِالْمَغْرُوفِ وَالْإِضْلَاحِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ حَدَّثَنِي سُرَيْجٌ حَدَّثَنَا عَبَّادٌ عَنْ حَجَّاجٍ عَنِ الْحَكَمِ عَنْ مِقْسَمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَثْلُهُ (مسند بني هاشم، رقم:2317)، وبمسند آخر عنده: حَدَّثَنَا نَصْرُ بْنُ بَابٍ عَنْ حَجَّاجٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَتَبَ كِتَابًا بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ... (مسند المكثرين من الصحابة، رقم:6610).

¹ محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، ص:203

وقد ذكر الشيخ ابن بيه أن (صحيفة المدينة) جاءت لمجتمع متعدد الديانات والطوائف؛ وقد نظمت حال هؤلاء والعلاقة فيما بينهم، وقد دعا إلى تبني مثل هذه الوثائق بدلاً من القول بنسخها، خاصة في مجتمعات متعددة الديانات. كما يمكن تطبيق مثل هذه «الوثيقة» بالإضافة إلى موثائق الأمم المتحدة التي أصبحت جزءاً من الموثائق الداخلية. وأشار الشيخ بن بيه إلى أن غالبية النصوص في التعامل مع الآخر المختلف تندرج تحت هذه العناوين الرئيسة، وتبقى عناوين فرعية في مسألة الولاء والبراء وغيرها مما يحتاج إلى مزيد من الدراسة لنعرف أي ولاء وأي براء؟ ولنعرف هل هي قضية متعلقة بالدين أم بالقضايا الدنيوية¹.

إن هذه الوثيقة أو الكتاب كانت بمثابة إعلان دستور وضع خطوطاً كلية عامة لنظام الدولة في الداخل بعلاقة أفرادها بعضهم ببعض، وبالعلاقة الدولة بالخارج. وهذا يدل على أن المجتمع الإسلامي الأول نشأ على أسس ومقومات دستورية لا على الفوضى والهمجية، وهي كلها تقوم على فكرة وحدة الأمة الإسلامية، ذلك أن الإسلام لا يهتم فقط بتوثيق علاقة الفرد بخالقه تعالى، وإنما أيضاً بتنظيم العلاقات الاجتماعية في كل مجالاتها المختلفة².

كما أن الصحيفة لم تغفل مكونات المجتمع المدني بل أشركت الجميع، وبخاصة اليهود، وكان بإمكان هؤلاء اليهود أن يتعاونوا مع المسلمين لبناء مجتمع متماسك قوي تسوده قيم العدالة والخير، لكن خياناتهم وغدرهم أدت إلى تفويت الفرصة عليهم ليكونوا عنصراً إيجابياً في الدولة الناشئة وأن تطبق عليهم القوانين المعمول بها دولياً جزاء خيانتهم ومكرهم³.

¹ <http://www.binbayyah.net/portal/tasrehaat/1399>

² البوطي، *فقه السيرة*، ص: 203.

³ البوطي، *فقه السيرة*، ص: 206.

كما نصت الوثيقة على مقومات المجتمع الإسلامي التي هي أيضا قيم إنسانية كالوحدة الشاملة بين أفرادهِ دون تمييز، جاء في الصحيفة: (بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي ﷺ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس..)، ورسخت قيم التكافل والتضامن والمساواة العادلة بينهم، جاء فيها: (وأن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم) أي أن كل فرد مهما كان مركزه ضعيفا كان أو فقيرا أو رجلا أو امرأة فذمته محترمة، وجواره محفوظ لا يجوز أن يجار عليه فيه¹.

لكن نذكر أن بعض الباحثين اعتبر صحيفة المدينة وثيقة غير صحيحة من الناحية التاريخية، أو شككوا في نسبتها إلى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو أنها مجموعة من النصوص ضمت إلى بعضها البعض في أزمنة مختلفة².

ثالثا: موقف المستشرقين من نص الوثيقة:

والاستشراق له جوانب إيجابية ومواقف أخرى سلبية من الوثيقة وهي كلها تبين موقفه عموما من نبي الإسلام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن المسلمين ودينهم. والكثير منهم له شهادات حية عن الإسلام وحضارته³ من خلال قراءتهم للوثيقة التي تتطلب إبرازاً وإظهاراً لأنها تمثل إقراراً ومواقف منصفة محايدة على ما

¹البوطي، فقه السيرة، ص: 208

²محمود علي مراد، تحليل نقدي لصحيفة يثرب وآراء المستشرقين بشأنها، الفصل الأول: الصحيفة، في الأحد 16 سبتمبر 2012

. http://www.ahl-alquran.com/arabic/show_article.php?main_id=10139

³محمد بشير مغلي، مناهج البحث في الإسلاميات لدى المستشرقين وعلماء الغرب، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط 1، سنة 1422هـ/2002م، ص: 387 وما بعدها.

تضمنته الحضارة الإسلامية من عناصر الجذب والقوة سبقت بها أرقى الأنظمة العالمية¹.

ولعل أهم إيجابية تذكر لهؤلاء المستشرقين اعتراف الكثير منهم بثبوت نص الصحيفة من الناحية التاريخية ونسبتها إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إلا أن بعضهم تساءل هل هي وثيقة من وضع محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أم تأثر فيها غيرها من الوثائق التي كانت سائدة آنذاك، وهل هي وثيقة واحدة أم هي مجموعة من الوثائق ضمت إلى بعضها البعض على فترات زمنية متباعدة³. ولم يتوقف اهتمام المستشرقين بالوثائق الموروثة عن العهد النبوي بل انصب اهتمامهم على المدينة نفسها موطن الوحي، والاطلاع على معالمها وحياة الناس فيها، منهم جوزيف بيتس (Joseph Pitts) الذي زار المدينة المنورة وكتب عنها².

يذهب بعض المستشرقين إلى أن صحيفة المدينة ليست نصاً دينياً، أي أنها لم تكن وحياً، وإنما من وضع محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واجتهاده مستفيداً مما كان سائداً من المعاهدات في زمانه، ولم يتم تبليغها عن طريق السنة تبليغاً عن الله تعالى³، وأنها "مجموعة من الإجراءات المتفق عليها ذات طابع عملي

¹ محمود علي مراد، تحليل نقدي لصحيفة يثرب ولآراء المستشرقين بشأنها، الفصل الأول، المرجع السابق.

³ - محمود علي مراد، المرجع نفسه.

² وهو أول بريطاني وثاني أوروبي يزور (مكة المكرمة) في التاريخ الحديث، وقد تسمى باسم الحاج يوسف، وهو رحالة شاب وقع في الأسر في الجزائر وقام مع مولاه برحلة إلى الديار المقدسة ومر بمصر فكتب عنها أكثر مما كتب عن الحجاز، والكتاب وثيقة مهمة عن أحوال مصر والحجاز في القرن السابع عشر. وقد قدم للأوربيين معلومات مهمة كانوا يجهلون عنها مدينتي مكة والمدينة المنورة، وقوافل الحج وشعائره، وهو أيضاً أول من وصف طريق الحج البري والبحري - من بلاد المغرب مروراً بمصر. انظر موقع

<http://www.makkawi.com/Articles/Show.aspx?ID=330>

³ يشير إلى قوله تعالى: (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) النجم: 3 و4

محض" كما هو رأي المستشرق الانجليزي ر.ب. سرجنت، وقد ذكر أنه درسها على مدى عدة سنوات وانتهت به الدراسة إلى نتيجة مؤداها أن الصحيفة لم تكن وثيقة واحدة وإنما كانت في الواقع مجموعة من المعاهدات¹.

ويستند في ذلك إلى اختلاف الصيغ التي وردت بها الصحيفة في المصنفات القديمة التي ألفت عن السيرة النبوية كسيرة ابن هشام نقلا عن ابن إسحاق، وما ورد عند أبي عبيد في كتاب الأموال؛ وابن كثير في كتابه البداية والنهاية؛ وابن سيد الناس في عيون الآثار.

رابعاً: دعوى استفادة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المعاهدات السابقة في صياغة صحيفة المدينة:

يخلص بعض المستشرقين ومنهم الأستاذ ر.ب. سرجنت إلى أن هناك شَبَهاً كبيراً بين صحيفة المدينة وبين بعض المعاهدات التي تمت في بعض المناطق العربية، باعتبار أن الظروف والأوضاع في شبه الجزيرة العربية لم تتغير كثيراً منذ أحقاب طويلة، فإن المجتمع العربي ولغته لم يتعرضا لتغيرات كبيرة ولم يؤثر فيهما الإسلام كثيراً، كما أنه لم يغير كثيراً في أوضاع المجتمع العربي الجاهلي. ويستند الأستاذ "سرجنت" في تحليله إلى مصادر التراث العربية وإلى الثقافة التقليدية السائدة في مناطق الجزيرة العربية التي يظن بأن علمه بها قاده إلى ذلك. وقد أعلن بأن بحوثه قاده إلى نتيجة وهي أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

¹ - كتب ر. ب. سرجنت عن الصحيفة دراستين: إحداهما نشرت في مجلة «The Islamic Quarterly» أي (المجلة الإسلامية ربع السنوية)، في سنة 1964، تحت عنوان "دستور المدينة"، والثانية في «The Bulletin of the School of Oriental and African Studies» نشرة مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية)، في سنة 1978، تحت عنوان: "السنة الجامعة، المعاهدات مع يهود يثرب، وتحريم يثرب: تحليل وترجمة الوثائق التي يجمعها ما يسمى بـ "دستور المدينة".

كان يتصرف وفقاً ما كان سائداً من نماذج وتقاليد سياسية في المجتمعات العربية التي توارثتها الأجيال منذ زمن بعيد¹.

وهذه في الحقيقة دعوى قديمة أثارها المشركون طعنا منهم في مصدر الوحي. وقد سجل لنا القرآن الكريم هذه الشبهة المثارة من قبل أعداء الإسلام منذ بداية نزول الوحي، بأن ما جاء به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الوحي إنما أخذه عمن سبقه ولم يكن وحياً من الله تعالى، وهي تهمة قديمة متجددة حاول القرآن منذ نزوله دحضها ونفيها عن النبي محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا وَقَالُوا أُسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا)¹.

والأستاذ سرجنت بهذا الطرح إنما يريد أن ينفي صفة النبوة عن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنه لم يكن إلا حاكماً سياسياً أو قاضياً يحكم ويفصل في المنازعات والخصومات شأنه في ذلك شأن آبائه الأولين، وأنه لم يكن مسئولاً إلا عن تغييرات قليلة في قوانين الجزيرة العربية وفي مجتمعاتها. بمعنى أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يحدث تغييراً كبيراً في المجتمع العربي وأن الإسلام لم يقيم إلا بالشيء القليل. ويستدل بحديث رواه البخاري وغيره أن خيار الناس في الإسلام خيارهم في الجاهلية إذا أحسنوا التفقه في الدين، ونص الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أيُّ الناس أكرم؟ قال: أكرمهم عند الله أتقاهم. قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: فأكرم الناس وفي رواية: إنه الكريم ابن الكريم يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله. قالوا: ليس عن ذلك نسألك، قال: فعن معادن العرب تسألوني؟

¹ - محمود علي مراد، تحليل نقدي لصحيفة يثرب وآراء المستشرقين بشأنها، الفصل الثاني، المرجع السابق.

¹ الفرقان: 4-5-6.

قالوا : نَعَمْ ، قال: (فَخِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَةِ خِيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقَّهُوا)¹ . وهو يؤكد في رأيه استمرار أوضاع الجاهلية بعد مجيء الإسلام، وبقاء الأعراف القديمة في مجتمع يثرب².

وهذا الحديث برواياته المختلفة لا يعني تحكيم الأوضاع السابقة والإبقاء عليها بقدر ما يفيد أن الإيمان بالله تعالى هو معيار الخيرية، فأخيار الجاهلية هم أخيار في الإسلام إذا تحقق فيهم شرط الإيمان، أما من بقي على شركه وكفره فلا مزية له على المسلمين ولا يستحق الخيرية في الإسلام³.

وبعد هذا يقرر "سرجنت" أن محمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان مجرد قاضٍ، ويستدل في ذلك بأن آباءه كانوا قضاة، ثم يدعم رأيه بقضية رواها بعض أصحاب السير والحديث عرضت على الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي قضية اليهودي واليهودية المحصنين اللذين ضُبطا في علاقة غير شرعية⁴ ، فقد روى مالك في الموطأ والبخاري في صحيحه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ إِنَّ الْيَهُودَ جَاءُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرُوا لَهُ أَنَّ رَجُلًا مِنْهُمْ وَامْرَأَةً زَنِيَا فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَةِ

¹ صححه الألباني في صحيح الأدب المفرد، رقم: 96. ورواه البخاري في صحيحه رقم: 3374، بلفظ: (قيل للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: من أكرم الناس؟ قال: (أكرمهم أتقاهم). قالوا: يا نبي الله، ليس عن هذا نسألك، قال: (فأكرم الناس يوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله). قالوا : ليس عن هذا نسألك، قال: (فعن معادن العرب تسألونني). قالوا: نعم، قال: فخيركم في الجاهلية خياركم في الإسلام، إذا فقَّهوا)

² محمود علي مراد، تحليل نقدي لصحيفة يثرب وآراء المستشرقين بشأنها، ر.ب. سرجنت. في الأربعاء 26 سبتمبر 2012.

http://www.ahl-alquran.com/arabic/show_article.php?main_id=10184

³ محمود علي مراد، تحليل نقدي لصحيفة يثرب وآراء المستشرقين بشأنها، الفصل الثاني، المرجع السابق.

⁴ المرجع نفسه.

فِي شَأْنِ الرَّجْمِ فَقَالُوا نَقْضُحُهُمْ وَيُجْلَدُونَ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ كَذَبْتُمْ إِنَّ فِيهَا الرَّجْمَ فَأَتَوْا بِالتَّوْرَةِ فَنَشَرُوهَا فَوَضَعَ أَحَدُهُمْ يَدَهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ فَقَرَأَ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ ارْفَعْ يَدَكَ فَرَفَعَ يَدَهُ فَإِذَا فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ قَالُوا صَدَقَ يَا مُحَمَّدُ فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَجِمَا فَرَأَيْتُ الرَّجُلَ يَخْنِي عَلَى الْمَرْأَةِ يَقِيهَا الْحِجَارَةَ¹.

وفي الحقيقة أن القرآن الكريم قد أجاز للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يحكم بين الناس وأن يفصل في خصوماتهم ما داموا مواطنين من رعيته دون تمييز بين المسلمين وغير المسلمين، فمن أهل الكتاب من اليهود والنصارى مثلهم مثل المسلمين أن يرفعوا أمورهم إلى القاضي الأعلى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي لا يحكم إلا بالعدل، قال تعالى: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ)²، وقال أيضا: (وَأِنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ)³.

والحقائق التاريخية تفند ما ذهب إليه الأستاذ سرجنت وغيره من أن آباء الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأولين كانوا قضاة أو محكمين. وبالنظر إلى التاريخ نجد أن ما وصلنا من أخبار أجداد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقرابته بشيء من التفصيل هو جده عبد المطلب وعمه أبو طالب. وهؤلاء لم يكونوا قضاة، بل كانوا هم أنفسهم يلجؤون إلى الكهنة والعرافين للفصل في نزاعاتهم وخصوماتهم كما في مسألة توزيع الكنز الذي وجده جد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما حفر بئر زمزم وسقاية الحجيج منه عندما ذهبوا إلى كاهنة على

¹ رواه مالك في الموطأ في كتاب الحدود، باب ما جاء في الرجم، رقم: 1288 - والبخاري في صحيحه في كتاب الحدود، باب أحكام أهل الذمة، رقم: 6841.

² المائدة: 48.

³ المائدة: 94.

مشارف الشام ولم يصلوا إليها لما رأوا من الآيات من جده عبد المطلب في أثناء الطريق وخلوا بينه وبين زمزم¹ ، وأيضا في مسألة النذر بذبح ابنه قربانا لله تعالى إن رزق عشرا من الولد، فمنعته قريش من ذبحه حتى لا يصير ذلك سنة في العرب ولجؤوا إلى عرافة لها تابع في الحجاز فنصحتهم وأرشدتهم إلى فدائه بالإبل ونجا ابنه عبد الله أب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الذبح².

إن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثله مثل الأنبياء من قبله كانوا مأمورين من الله تعالى أن يحكموا بين الناس بالعدل، قال تعالى: (يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)³. وكان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يمارس وظيفته كقاضي استجابة لقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا)⁴ ، كما أمر الله تعالى في كتابه العزيز المؤمنين أن يتحاكموا إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرُّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرُّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا)⁵ ،

وقال: (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)⁶.

فلم يكن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتصرف كقاض فقط، بل هو من جملة مراتب تصرفاته ووظائفه في الأمة، فكان يتصرف في الناس باعتباره نبيا

¹ ابن كثير، السيرة النبوية، ج:1، ص: 168 و169.

² ابن كثير، السيرة النبوية، ج:1، ص: 174 وما بعدها.

³ ص:26.

⁴ - النساء:58.

⁵ - النساء:59.

⁶ - النساء:65.

مبلغاً عن الله تعالى مثله مثل الأنبياء السابقين بتكليف واصطفاء منه سبحانه وتعالى، أو باعتباره حاكماً أي رئيس دولة يسوس رعيته بما يعود عليهم بالمصلحة، أو باعتباره قاضياً يفصل في الخصومات¹، كما كان يتصرف في الحياة العامة باعتباره بشراً عادياً يأكل ويشرب ويمشي في الأسواق ويتزوج النساء ويمرض ويأخذ بأسباب العلاج وغيرها².

فتصرفات الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلها كانت بهدي من الوحي حتى فيما اجتهد فيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكان الوحي يصوبه في كل ما كان يقوم به، كما في مسألة أسرى بدر وغيرها³.

خامساً: موقف المستشرقين من بعض القضايا في الوثيقة:

1. مفهوم مصطلح الأمة في الوثيقة:

ورد مصطلح "أمة" في موضعين من صحيفة المدينة، وهما:

الأول: (بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي ﷺ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس...) ¹.

¹- القرافي، شهاب الدين، الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام، دار البشائر الإسلامية، ط 2، سنة 1416هـ/1995م، ص: 99 وما بعدها.

²حتى أن بعض الناس عابوا عليه تصرفاته البشرية، وسجل ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: (وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا). الفرقان: 07.

³قول تعالى: (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ). الأنفال: 67 إلى 71.

الثاني: (وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه، وأهل بيته)².
يذهب المستشرقون إلى أن لفظ "الأمة" في الصحيفة عبارة عن اتحاد "كونفدرالي" سياسي، وأن هذا الاتحاد مثله مثل الاتحادات القديمة في شبه الجزيرة العربية وحتى اتحاداتها المعاصرة كانت ولا تزال مرتبطة بصفة عامة ببيت كهنوتي ذي طابع وراثي؛ ومعظم هذه الاتحادات كان ثيوقراطياً (أي الحكم فيه ديني، والحاكم يستمد الحكم فيه مباشرة من الله)، على الرغم من أن ذلك لم يكن قاعدة مطلقة. وكان للاتحاد الذي أنشأه النبي محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في يثرب ذي خاصية يتفرد بها، ويختلف عما كان سائداً من ديانات اليهود وديانات القبائل العربية.

وما قام به محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في نظرهم لم يكن شيئاً جديداً إذ أن قريشا في مكة -وهو المكان الذي اجتمعت فيه أشهر آلهتهم المعبودة- كان يشهد بتسامح قريش حيال الديانات الأخرى بما في ذلك الديانة المسيحية التي كانت لها بعض الأشياء الخاصة بها داخل الكعبة ذاتها كصور النبي إبراهيم عليه السلام وهو يستقسم بالأزلام. وبمرور الوقت تحول الاتحاد الكونفدرالي الذي أنشأه محمد في المدينة إلى "اتحاد ثيوقراطي" ثم إلى "أمة إسلامية".¹

ويستند هؤلاء المستشرقين إلى نصوص من القرآن الكريم، منها آية النمل التي تتحدث عن أمم تكذب آيات الله، وهي قوله تعالى: (وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ)². وقوله تعالى: (كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي

¹ ابن هشام، محمد عبد الملك، السيرة النبوية، المكتبة العصرية، ط3، سنة 1995م، ج:2، ص:126 إلى 129.

² ابن هشام، السيرة النبوية، ج:2، ص:126 إلى 129.

¹ - محمود علي مراد، تحليل نقدي لصحيفة يثرب ولآراء المستشرقين بشأنها الفصل الثاني، المرجع السابق.

² - النمل:83.

أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَبِثُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ³، ونصوص القرآن تبين أن محمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أرسل قبله رسل آخرون، وبالتالي فهو على علم بالأمم (الاتحادات الشيوقراطية) التي كانت موجودة في الزمن الغابر وفي زمانه حيث تأثر بها في تشكيل اتحاده بالمدينة¹.

ويسوقون أيضاً نصوصاً أخرى تثبت وجود الأمة قبل أمة المدينة كأمة قريش في قوله تعالى: (بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ)²، وقوله تعالى في الرد على قريش: (وكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ)³، ثم في قوله تعالى: (قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ)⁴، كما يستدلون بنصوص أخرى، منها قوله تعالى: (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ)⁵.

كما ينقلون عن بعض العلماء نصوصاً ويؤولونها، كنقلهم عن الإمام الطبري أنه فسر هاتين الآيتين⁶ بأنه كان هناك في الأصل أمة (أي اتحاد ثيوقراطي)، وأن احتمال أن يكون معنى الأمة عنده هو معنى "الجماعة"؛ وهي مقسمة إلى ثلاثة أجزاء: اليهود والنصارى والكفار. ويبدو أن القرآن يعني هنا أن هذه الطوائف الثلاث أصبحت اتحاداً ثيوقراطياً (أمة) واحداً تحت رعاية الله.

³ - الرعد:30.

¹ - محمود علي مراد (المرجع السابق).

² - الزخرف:22.

³ - الزخرف:23.

⁴ - الزخرف:24.

⁵ - الأنبياء:92 و93.

⁶ أي الآيتان 92 و 93 من سورة الأنبياء

إن الزعم بأن تفسير الأمة الوارد في الصحيفة أنه اتحاد سياسي ذو معنى ثيوقراطي قائم على أساس الحق الإلهي غير سليم، وأن استشهادهم بالآيات لم يكن استشهاداً صحيحاً. فالأستاذ "سرجنت" يسوق آيات تضمنت لفظ "أمة" ويريد أن يوظفها لتأييد رأيه في تحديد معنى الأمة سواء ما جاء في الصحيفة أو في القرآن الكريم¹.

وإذا جئنا إلى هذه الآيات لوجدنا أن مصطلح الأمة له معان مختلفة بحسب السياق القرآني²:

فقوله تعالى: (وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ)³. لا تدل هذه الآية على وجود أمم بكاملها لا تؤمن بآيات الله، بل تحدد أن هناك جزءاً أو فوجاً من كل أمة ممن ينكر آيات الله.

وقوله: (كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَبِثُوا عَلَى اللَّهِ أَوْحِينَائِكَ)⁴. هذه الآية لا تدل على معنى اتحاد ثيوقراطي ولكن تدل على وجود شعوب ومجتمعات قديمة، ومثله قوله تعالى: (وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ)⁵، وقوله: (وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ)⁶.

وهذه الآية مع غيرها من الآيات الأخرى الواردة في القرآن الكريم تدل على إخبار الله تعالى لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بوجود أمم كافرة رفضت دعوة الأنبياء وقاومتهم بالقوة، وهو ما يعرف بالقصص القرآني، قال تعالى: (ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا

¹ - محمود علي مراد، (المرجع السابق)

² - ابن كثير، أبو الفداء، تفسير القرآن العظيم، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط 7، سنة 1405هـ/1985م، ج: 3، ص: 539 و540.

³ - النمل: 83.

⁴ - الرعد: 30.

⁵ - الأعراف: 159.

⁶ - الأعراف: 181.

تَنزَى كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةٌ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبِعَدَا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ¹ ، وقال أيضا: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ)² ، وقال أيضا: (مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْزِرْكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْبِلَادِ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ)³.

وكلمة أمة في قوله تعالى: (بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ)⁴ ، لا تعني، كما يقول الأستاذ سرجنت، "اتحاداً ثيوقراطياً"، وإنما وردت بمعنى الدين⁵. وقوله تعالى في سورة الزخرف: (وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ)⁶ ، كلمة الأمة فيها تعني أيضا الدين أو الملة⁷. ومثله قوله تعالى: (وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)⁸ ، وقوله: (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ)⁹.

¹ - المؤمنون: 44.

² النحل: 36.

³ - غافر: 4 و5.

⁴ - الزخرف: 22.

⁵ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج: 6، ص: 223.

⁶ - الزخرف: 23.

⁷ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج: 3، ص: 539.

⁸ - يونس: 19.

⁹ - الأنبياء: 92.

كما ترد كلمة "أمة" بمعان أخرى، بمعنى الزمن والأمد¹ كما في قوله تعالى: وَلَئِنْ أَخْرَنَّا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ² ، وأيضا قوله: (وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ)³ ، وبمعنى الإمام الذي يقتدى به لكونه جامعا لخصال الخير⁴ كما في قوله تعالى: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)⁵.

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أراد من خلال الصحيفة أن يجعل المجتمع المدني يرقى إلى مستوى الأمة وليس مجرد اتحاد ثيوقراطي كما زعم هؤلاء المستشرقون، هذه الأمة التي تحمل في طياتها معان جديدة تحفظ للمجتمع المدني وحدته واستقراره، وتسود فيه قيم التعاون والتآزر والمواطنة، دون النظر إلى معيار الدين⁶ أو الجنس أو اللون أو غيرها من معايير التفرقة التي كانت سائدة آنذاك.

فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أراد أن يرتقي بالمجتمع المدني الجديد في ظل الحكم الإسلامي إلى مستوى يعلو فيه عن الخصوصيات العرقية والعرفية والتاريخية تكون مصلحة المجتمع هي العليا، وأن يسهم الجميع في بناء المجتمع والرقى به والدفاع عنه.

فلكل بطن خصوصيته، ولليهود بمختلف بطونهم دينهم، ولم يأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناس بالتخلي عن خصوصياتهم ولا يأمر اليهود بالتخلي عن

¹ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج: 6، ص: 223.

² - هود: 08.

³ - يوسف: 45.

⁴ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج: 4، ص: 233.

⁵ - النحل: 120.

⁶ - أي احترام دين كل طائفة كاحترامه دين اليهود إقرارا منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحرية الدين، قال تعالى: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ). البقرة: 256.

دينهم، فالكمل يشكلون المجتمع الجديد الذي حرص فيه النبي صلى الله عليه على قوة شبكة علاقاته الاجتماعية القائمة على المساواة في الحقوق والواجبات، وتحمل الجميع لمسؤولية النصر والدفاع والتعاون، وإنما أمرهم بترك نعرات الجاهلية والتفاخر بالآباء والعداوة وإحلال بدلها قيم المواطنة والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار والتحالف بين كل مكونات المجتمع¹.

إن الدين الذي جاء به محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قائم على احترام الإنسان، ولم يبلغ كل ما وجدته في حياة الناس، بل أقر ما هو صالح ونافع من العادات والأخلاق والأعراف والمعاملات، حيث يقول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ حُسْنَ الْأَخْلَاقِ)². فقام بإصلاح ما هو فاسد، وتكميل ما هو ناقص وإلغاء ما هو باطل ومحاربة ما هو مضر بالجماعة وحياة الأفراد. فحارب الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الشرك ودعا الناس إلى التوحيد بالعلم والبرهان وبالحسن، وقضى على الآفات الاجتماعية المضرّة كالشعوذة والخرافات وكالأخذ بالثأر عن طريق حكم القصاص، وأبطل الأنكحة الفاسدة المخالفة للفطرة والكرامة. وكل ذلك مبين في المصدر الأساسي للدين وهو القرآن الكريم الذي كان يكفي هؤلاء المستشرقين لمعرفة الحقائق التاريخية بدل تلك المصادر التي حاولوا تأويل ما جاء فيها وإعطائها قراءة مناقضة للحقيقة والواقع.

كما قام ببناء مجتمع جديد على العقيدة الصحيحة والعبادة السليمة، وبناء العلاقات الاجتماعية على أساس المساواة والاحترام والحقوق والواجبات، واعتنى بالأسرة وبروابط القرابة وهي تغييرات جوهرية أخرجت المجتمع العربي آنذاك من الجاهلية والظلم والاعتداء إلى العدل والإحسان والأمن، قال تعالى:

¹ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (قَالَ قَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ عَنْكُمْ عُيْبَةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَحَرَهَا بِالْأَبَاءِ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ) قَالَ أَبُو عِيْسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ. رواه الترمذي في كتاب المناقب عن رسول الله، رقم: 3891.

² - رواه مالك في الموطأ في كتاب الجامع.

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)¹.

فالتغيرات التي أحدثها النبي صلى الله عليه بهذا الدين الجديد أحدثت قطيعة مع الماضي المليء بالحروب والنزاعات وعبادة الأوثان وامتهان الإنسان والثأر دون أن يقطع صلته عن الاستفادة من التجارب النافعة التي أنتجها العقل السليم، وجعلت المجتمع المدني الذي أسسه في المدينة قائما على قيم إنسانية جديدة التي غابت دهورا طويلة عن حياة المجتمعات لولا الخيانة التي تحدث من حين لآخر من المنافقين وبعض اليهود محاولة لزعزعة الاستقرار وإثارة الفتنة وإضعاف قوة المسلمين.

2. معنى الهجرة والمهاجرين في الصحيفة:

كما اهتم المستشرقون بالمهاجرين من الصحابة¹، وحاولوا إعطاء معنى للهجرة الوارد في صحيفة المدينة غير المعنى الذي أثبتته نصوص القرآن والسنة، فمعنى الهجرة في نظرهم هي طلب الحماية، والمهاجر هو شخص ينشد الحماية في مكان ومع قوم لا يُشكّلان مكانه الأصلي ولا قومه، ويقارنون ذلك بما كان سائدا في بعض القبائل العربية كاليمن مثلا حيث كان بعض اليمنيين ينشدون الهجرة لدى القبائل الزيدية. ويستخلص الأستاذ سرجنت من محتوى الصحيفة أن هناك اتفاقا عُقد بين نفر من قريش ويقصد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، كانوا يبحثون عن الأمن وعن مكان يقيمون فيه مطمئنين. وقد قدمت لهما القبيلتان الأوس والخزرج بما لهما من قوة ومنعة الأمن ومكان الإقامة في يثرب. وكان تقديم هذه الحماية للرسول وقبوله لها موضوع معاهدتي

¹ - النحل: 90.

¹ - سعد بن عبد الله بن سعد الماجد، موقف المستشرقين من الصحابة رضي الله عنهم، دار الفضيلة، الرياض، ط 1، سنة 1431هـ/2010م، ص: 538 وما بعدها

العقبة بينه من جهة وبين الأوس والخزرج من جهة أخرى، وأن هاتين المعاهدتين كانتا مدونتين كتابة¹.

إن أمر الهجرة معروف عند الناس قبل الإسلام، والكثير منهم كان يهاجر لأغراض شتى ومآرب شخصية، إما للسياحة أو طلباً للرزق أو الحماية أو الأمان أو الشهرة أو التمرد على أوضاع معينة، أما الهجرة في الإسلام فلها معنى جديد. وبالرجوع إلى المصادر الأساسية للتشريع الإسلامي من كتاب وسنة لوجدنا أن معنى الهجرة والمهاجرين غير المعنى الذي أثاره هؤلاء المستشرقين أو المعنى الذي كان سائداً بين الناس قبل الإسلام.

فالهجرة في الإسلام أسمى من ذلك كله فهي فاصل بين الذلة والعزة، قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا)² ، وهي حدٌ بين الكفر والإيمان، قال تعالى: (وَدُّوا لَوْ تُكْفِرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا)³ ، وهي انتقال بالإسلام من مرحلة الدعوة إلى مرحلة بناء الدولة التي يقوم فيها حكم الإسلام وقيمه العادلة، فهي فرازٌ بالعقيدة وحمايةٌ للدين الجديد من التهديد المحدث به من قبل قريش المشركة؛ لذلك عاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على من هاجر مع المسلمين طلباً لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها⁴.

¹ - محمود علي مراد، المرجع السابق.

² - النساء: 97.

³ - النساء: 89.

⁴ أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه). ورواه أبو داود عن علقمة بن وقاص الليثي يَقُولُ سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى الْمُنْبَرِ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: (إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا

لذا نجد أن نصوص القرآن أشادت بالمهاجرين واعتبرت هجرتهم جهادا في سبيل الله تعالى، قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) ¹ ، وأن هجرتهم كانت نصرة للدين وحماية لمعتنقيه الذين إن قضى عليهم ضياع للدين وخسارة للبشرية، قال تعالى: (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوَّتَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) ² ، وقال أيضا: (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) ³ ، ونصوص أخرى ترتب ثوابا على الهجرة باعتبارها عملا صالحا عظيما وتجعله برهان الإيمان، قال تعالى: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) ⁴ ، وقال: (فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) ⁵ ، وقال: (وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يُخْرَجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ) ⁶ .

فهذه النصوص كلها لا تعتبر المهاجرين أناسا طلبوا الحماية أو خرجوا من أجل الرزق، وبالتالي فليس هناك وجه للمقارنة بين ما كان سائدا في المجتمعات العربية من الخروج من القبيلة طلبا للحماية والمنعة، وبين هجرة المسلمين من

أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهَجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ)، كتاب الطلاق، رقم: 1882. وابن ماجه في

كتاب الزهد باب النية، رقم: 4217.

¹ - البقرة: 218.

² - النحل: 41.

³ - النحل: 110.

⁴ - الأنفال: 74.

⁵ - آل عمران: 195.

⁶ - النساء: 100.

أجل تبليغ الدين وتعبيد الناس في ربهم والفرار من مجتمع الظلم والوثنية، وكانت واجبة على المسلمين نصرة للدين وتعبيرا عن الرفض للكفر والشرك، وكان المهاجر مستعدا لأن يضحي بنفسه وماله في سبيل الله تعالى فاستحق المكرمة منه سبحانه وتعالى، قال عز وجل: (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)¹.

ثم ما كان سائدا أيضا عند بعض العرب هو عمل فردي ينشد من خلاله صاحبه الحماية والأمان، أما ما قام به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته هو حركة جماعية تغييرية على أساس الإيمان بفكرة لا أساس مصلحة فردية أو منفعة آنية، لذلك فالصحابة ضربوا أروع الأمثلة في التضحية بأموالهم وديارهم وممتلكاتهم وقرباتهم وأهلهم، قال تعالى: (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ)².

3. مركز اليهود ووضعهم من خلال نص الصحيفة:

خصت الوثيقة اليهود بالذكر واعتبرت أمة مع المسلمين، وأشركتهم في بناء المجتمع الجديد، فيتحملون ما يتحمله المسلمون من واجب التعاون والنصرة والدفاع.

ومما جاء في الصحيفة عن اليهود:

(وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم، وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً). (وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة مع

¹الحج: 58

²الحشر: 08

المؤمنين، لليهود دينهم، مواليتهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ¹ إلا نفسه، وأهل بيته، وإن لليهود بني النجار مثل ما لليهود بني عوف، وإن لليهود بني جُشم مثل ما لليهود بني عوف، وإن لليهود بني الأوس مثل ما لليهود بني عوف، وإن لليهود بني ثعلبة مثل ما لليهود بني عوف، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته، إلا من ظلم، وإن الله على أبر هذا، وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غير مُضَارٍّ ولا آثم، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها)

(وإن يهود الأوس، مواليتهم وأنفسهم، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة، مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة. وإن البر دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم، وإنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم أو آثم، وإن الله جار لمن بر واتفق، ومحمد رسول الله ﷺ)

هذه النصوص وغيرها تثبت احترام الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لليهود¹ ووجود اتفاق مكتوب يعتبرهم فيه أمة مع المسلمين، وتضمن شروطاً منها عدم التعاون مع الأعداء ضد الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمين، إلا أن المستشرقين حاولوا تأويل هذه النصوص وغيرها بما يتفق مع أغراضهم الاستشراقية العدائية.

¹ يوتغ: يهلك.

¹ - محمد بشير مغلي، مناهج البحث في الإسلاميات لدى المستشرقين وعلماء الغرب، ص: 111.

فيذهب الأستاذ سرجنت وغيره من خلال قراءتهم لنص الصحيفة أن محمدا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عقد حلفين بين أصحابه المهاجرين المكيين الذين كانوا وقتها لاجئين في يثرب، وبين الأنصار من قبيلتي الأوس والخزرج ومواليهم من قبائل اليهود، وأسس كونفدرالية (أمة) ذات طابع دنيوي صرف ولكنها ثيوقراطية يرجع فيها التحكيم الأخير إلى الله تعالى ومحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وبين هذا المستشرق أن اليهود من جملة الفئات المذكورة في الصحيفة، وهؤلاء اليهود الذين هم جزء مهم من سكان المدينة كانوا تاريخيا قد أقاموا في الحجاز قبل الفترة المسيحية، ولم يكونوا جميعاً من درجة اجتماعية واحدة، وكان لبعض قبائلهم شرف وثروة وقوة أكثر ما للقبائل الأخرى التي عددها ثلاث عشرة قبيلة ذكرت خلال هذه الفترة، إلا أن النبي محمد لم يتخذ إجراءً سياسياً مباشراً إلا ضد ثلاث منها وهم بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة. ومن المحتمل حسب رأيهم أن باقي القبائل اليهودية عقدت اتفاقات حماية مباشرة مع القبائل العربية التي ورد ذكرها في بعض روايات الصحيفة، وأنها كانت غير نشطة من الناحية السياسية. كذلك فمن المحتمل أن هذه القبائل كانت مشبهة بالقبائل اليهودية الثلاث الكبرى. وكان بنو النضير من سلالة أنقى من بني قريظة؛ وكانت ديتهم - وفقاً للعرف الجاري - ضعف دية بني قريظة. وقد زاد الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دية بني قريظة بحيث تتساوى مع دية بني النضير وحسّن بذلك مركزهم كثيراً. وكانت هذه مناورة سياسية قصد منها أن يحظى بتأييدهم¹.

فيهود المدينة بنص الوثيقة أدرجوا في الأمة وأصبحوا جماعة منها بفضل الاتفاق الذي أقامه بينهم وبين المؤمنين، وأصبح "مجتمعاً" على غرار جده الأكبر قصي الذي وُحِدَ قريشاً للتأكيد بأن محمداً كان زعيماً سياسياً أو قاضياً ولم يكن نبياً رسولاً، وأن هذا الاتحاد الذي يُعرف باسم الأمة الذي أقامه بين سكان المدينة بمختلف تشكيلاتها كان على أنقاض الاتحادات السابقة دون أن يحدد

¹محمود علي مراد، المرجع السابق

هؤلاء المستشرقون أشكال هذه الاتحادات، مما يدل بأنه مجرد ادعاء لا غير. وكان الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في نظرهم قد قام بعدة مفاوضات مع اليهود وغيرهم لإنشاء اتحاد الكونفدرالي الجديد المسمى بالأمة، مع أنه ليس هناك في المصادر التاريخية ما يدل على أن محمدا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أجرى حوارات ومفاوضات خاصة مع اليهود، مما يثبت بأن الأمر كان مبادرة منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حققه بكل سهولة بهدي من الوحي للحفاظ على وحدة المجتمع المدني وحمايته من الأخطار والتهديدات الخارجية، قال ابن إسحاق: وكتب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتاباً بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه يهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم، واشترط عليهم¹، وقال أيضاً: "حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ الْحَارِثِ بْنِ الْفَضِيلِ، عَنْ ابْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ قَالَ لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ، وَادْعَتْهُ يَهُودُ كُلِّهَا، وَكَتَبَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا كِتَابًا. وَأَلْحَقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلَّ قَوْمٍ بِحُلَفَائِهِمْ وَجَعَلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ أَمَانًا، وَشَرَطَ عَلَيْهِمْ شُرُوطًا، فَكَانَ فِيهَا شَرَطٌ أَلَّا يُظَاهِرُوا عَلَيْهِ عَدُوًّا"².

فمعظم القبائل اليهودية وافقت على بنود الصحيفة وانخرطت في الدستور الجديد الذي طرحه عليهم الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتنظيم شؤون المدينة سياسياً ومدنياً³.

وكان هدف الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الصحيفة إحلال نظام جديد في المدينة تتوحد فيه جميع العناصر وتحقق به الوحدة⁴ ويسوده الأمن والتعاون

¹ سيرة ابن إسحاق، ج: 1، ص: 501 - 504

² - الواقدي، المغازي، ج: 1، ص: 131.

³ - عماد الدين خليل، دراسة في السيرة، مؤسسة الرسالة ودار النفائس، ط 10، سنة 1406هـ/1987، ص: 323 و324.

⁴ - عماد الدين خليل، دراسة في السيرة، ص: 324.

والدفاع المشترك، قال الواقدي: (وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ وَأَهْلُهَا أَخْلَاطٌ - مِنْهُمْ الْمُسْلِمُونَ الَّذِينَ تَجَمَّعُوا دَعْوَةَ الْإِسْلَامِ فِيهِمْ أَهْلُ الْحَلَقَةِ وَالْحَضُونِ وَمِنْهُمْ خُلَفَاءُ لِلْحَيَّيْنِ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ. فَأَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ اسْتِضْلَاحَهُمْ كُلَّهُمْ وَمُؤَادَعَتَهُمْ وَكَانَ الرَّجُلُ يَكُونُ مُسْلِمًا وَأَبُوهُ مُشْرِكًا).¹

ويستنتج هؤلاء المستشرقون أن فئات المجتمع المدني بعد مجيء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صارت تتشكل من المسلمين (أي المهاجرين والأنصار) واليهود والمشركون حيث أدى هذا التكوين الاجتماعي الجديد إلى نزاعات بينهم. وكأنه يفهم من كلامهم أن سكان المدينة كانوا في حالة سلام، وكان هناك سلم بين الأوس والخزرج وبين القبائل اليهودية، ولم تكن في المدينة أزمة خطيرة، ولم يكن سكانها بحاجة إلى منقذ ليقبضها شر مثل هذه الحرب.²

لقد غاب عن بال هؤلاء المستشرقين أن الإسلام دعوة وليس ثورة³، وأن تعاليمه السمحة وأحكامه العادلة وأهدافه السامية حققت هذا التآلف بين سكان المدينة استجابة لأمر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باعتباره نبيا ورسولا لا كزعيم سياسي، جاءهم بالعدل والخير والأمن وبسعادة الدنيا والآخرة، مقنعا الناس بأن الإسلام هو الكفيل بالقضاء على الإحن والبغضاء والاستعباد والمنازعات والأحقاد والتقاتل. فوحد الناس بأخوة الإيمان بين المهاجرين والأنصار، وبإقرار حقوق المواطنة وواجباتها بين البطون والقبائل المختلفة ولم يكن بحاجة حينئذ لتحقيق ذلك إلى اتحاد كونفدرالي.

¹ - الواقدي، المغازي، ج:1، ص:139.

² - محمود علي مراد، المرجع السابق.

³ - أنور الجندي، سموم الاستشراق والمستشرقين في العلوم الإسلامية، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، ص:35 وما بعدها.

فبطون اليهود حتى وإن أظهروا تحالفا مع قبائل العرب في المدينة فقد كان هناك صراع خفي تارة يظهر على مسرح الأحداث بينهم وبين عرب المدينة، كما كانوا يقومون بالتحريش بين الأوس والخزرج وإشعال فتيل الحرب بينهم، وإثارة الفتنة بينهم، ومما يؤكد ذلك أنه في بيعة العقبة الثانية، المسماة ببيعة الحرب بين الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأهل المدينة، وجّه أحد ممن حضر هذا الاجتماع سؤالا إلى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جاء في السيرة: "فاعترض القول، والبراء يكلم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أبو الهيثم بن التيهاني فقال: يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالا وإنا قاطعوها، يعنى اليهود، فهل عسيت إن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ قال: فتبسم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم قال: "بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم منى، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم".¹

ولم يكن اليهود كما يزعم المستشرق إسرائيل ولفنسون بأن المراجع العربية لم تشر إلى حركات يهود يثرب ونياتهم إزاء بيعة الكبرى²، كأن الدعوة الإسلامية لم تصل إليهم، فالواقع يدل على أنهم لم يكونوا غافلين عن مجريات الأحداث المتسارعة والتغيرات الجديدة في المدينة³. بل ظل اليهود في المواقع الخلفية من الصراع الدائر بين قريش والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمين يخططون على ضوء نتائجه المتوقعة حتى إذا ما وجدوا ثغرة أو لمسوا ضعفا أو سنحت لهم فرصة لضرب الإسلام ورسوله تسللوا منها لتسديد طعنة إليهما⁴.

¹ - ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبد الواحد، ط سنة 1396 هـ/1976م، ج:2، ص:197 و198.

² - ولفنسون إسرائيل، تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، مطبعة الاعتماد، القاهرة، سنة 1927م، ص:106 و107 نقلا عن عماد الدين خليل، دراسة في السيرة، ص:323.

³ - عماد الدين خليل، دراسة في السيرة، ص:323.

⁴ - عماد الدين خليل، دراسة في السيرة، ص:323.

فموقف الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد ذلك من اليهود لم يكن متعسفا عندما أجلاهم أو حاربهم، لأنهم خانوا بنود الصحيفة التي وافقوا عليها بمحاولة قتله أو بالخيانة والتآمر مع مشركي قريش.

واليهود لم يكونوا كلهم في مركز الضعف، لقد كانوا أصحاب أموال، يملكون الحصون والسلاح، وكان لهم مستوى اجتماعي وثقافي محترما، وقد أسماهم الواقدي بـ "أهل الحلقة والحصون"، وكانوا يشكلون قوة يحسب لها حسابها. وكانت لهم علاقات مالية وتجارية مع البطون العربية، فكان فريق منهم متحالفاً مع الأوس وفريق متحالفاً مع الخزرج، وتحالفهم مع هاتين القبيلتين الكبيرتين في المدينة ليس بغرض الحماية وإنما بقصد التعاون والدفاع المشترك¹.

لكن بعد هجرة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة المنورة ورغم الميثاق الذي أمضاه اليهود مع الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صار عدوهم هو الرسول والمسلمون، وعقدوا اتفاقات وتعاونوا مع مشركي قريش ومنافقي المدينة للقضاء على الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودينه. ومع ذلك فقد عاملهم الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحسنى، وأبدى تعاوناً معهم، وكان يطمع منهم أن يتفهموا دوافع دعوته وأن يسهموا فيها أو يوقفوا منها موقف الحياد وهذا ما لم يلمسه منهم الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمون²، ولم ينفذوا أو يلتزموا ولو ببند واحد من الصحيفة.

لكن كانوا في كل مرة يحاولون إحراجه بالأسئلة عن طريق أحبارهم ورهبانهم لإثارة الشبهات على دينه وعقيدته، والقيام ببعض المواقف محاولة لنشر الخلاف بين صفوف المسلمين، أو اغتناما للفرصة للقضاء عليه بالقوة،

¹ - محمود علي مراد، المرجع السابق.

² - عماد الدين خليل، دراسة في السيرة، ص: 326.

وذلك لإدراكهم كما يبين ولفنسون خطورة مبدأ التوحيد وعالميته على مصالحهم³.

لكن تطور خلاف اليهود مع الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المناقشة في بعض المسائل الدينية إلى التورط في تفضيل الأصنام على التوحيد وهو ما يناقض عقيدتهم، إلى المخاصمة الكلامية²، إلى التعاون مع المنافقين¹، ثم إلى نقض بنود الصحيفة بالمؤامرات والاعتداء على الحرمات كما فعل يهود بني قينقاع، ومحاولة اغتياله كما فعل بنو النضير، والخيانة والتعاون والتحالف مع العدو للقضاء على الرسول وأصحابه كما فعل يهود بني قريظة.

وقد صور لنا الواقدي عداوة اليهود للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمين فقال: (فَكَانَ الْمُشْرِكُونَ وَالْيَهُودُ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابَهُ أَذَى شَدِيدًا، فَأَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيَّهُ وَالْمُسْلِمِينَ بِالصَّبْرِ عَلَى ذَلِكَ وَالْعَفْوِ عَنْهُمْ وَفِيهِمْ أَنْزَلَ: (وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ آوَوْا إِلَى الْكُفَّارِ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)، وَفِيهِمْ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الْآيَةَ. فَلَمَّا أَبَى ابْنُ الْأَشْرَفِ أَنْ يَنْزِعَ عَنْ أَذَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَذَى الْمُسْلِمِينَ وَقَدْ بَلَغَ مِنْهُمْ فَلَمَّا قَدِمَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ بِالْبَشَارَةِ مِنْ بَدْرِ بِقَتْلِ الْمُشْرِكِينَ، وَأَسْرٍ مِنْ أُسْرٍ مِنْهُمْ فَرَأَى الْأَسْرَى مُقَرَّنِينَ كُتِبَتْ وَذَلِكَ ثُمَّ قَالَ لِقَوْمِهِ: وَيَلَكُمْ وَاللَّهُ لَبَطُنُ الْأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ظَهْرِهَا الْيَوْمَ هَؤُلَاءِ سَرَاةُ النَّاسِ قَدْ قُتِلُوا وَأُسْرُوا، فَمَا عِنْدَكُمْ؟ قَالُوا: عَدَاوَتُهُ مَا حَيِينَا)³، وقال: (فَلَمَّا أَصَابَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصْحَابَ بَدْرِ وَقَدِمَ الْمَدِينَةَ، بَعَثَ يَهُودَ وَقَطَعَتْ مَا كَانَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ

³ - عماد الدين خليل، دراسة في السيرة، ص: 327.

¹ - عماد الدين خليل، دراسة في السيرة، ص: 330.

² - وقد فضح الله تعالى دسائسهم وتآمرهم مع المنافقين في آيات كثيرة من القرآن الكريم.

³ - الواقدي، المغازي، ج: 1، ص: 139.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْعَهْدِ فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ فَجَمَعَهُمْ ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ يَهُودَ أَسْلِمُوا، فَإِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنَّي رَسُولُ اللَّهِ قَبْلَ أَنْ يُوقِعَ اللَّهُ بِكُمْ مِثْلَ وَقْعَةِ قُرَيْشٍ. فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ لَا يَغُرُّكَ مَنْ لَقِيتَ، إِنَّكَ قَهْرَتْ قَوْمًا أَعْمَارًا. وَإِنَّا وَاللَّهِ أَصْحَابُ الْحَرْبِ وَلَئِنْ قَاتَلْتَنَا لَتَعْلَمَنَّ أَنَّكَ لَمْ تُقَاتِلْ مِثْلَنَا¹.

فكانت مواقف الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منهم بمحاصرته وإجلالهم ومحاربتهم نتيجة خيانتهم ونقضهم لبنود الصحيفة، وما فعله أمر متعارف عليه حتى في الأعراف والقوانين الدولية اليوم.

الخاتمة:

هذه بعض النظرات حول موقف المستشرقين من صحيفة المدينة وبنودها، بتناول مسائل منها، وهي تحتاج إلى مزيد دراسة وبحث وذلك لقيمتها التاريخية وما حوته من قيم ومبادئ أساسية لقيام أي مجتمع من المجتمعات، وهي تعكس أيضاً التجربة الإسلامية في وضع إطار قانوني ينظم العلاقات الاجتماعية، ويضبط الحقوق والواجبات، ويحقق العدل والمساواة بين الجميع بغض النظر عن العرق أو الدين أو اللغة.

ويشهد لهؤلاء المستشرقين أنهم قاموا بدراسات معمقة في التاريخ الإسلامي، والاطلاع على مصادره المختلفة، والبحث في وثائقه الثابتة، إلا أنهم يحاولون دائماً تأويل الكثير من المواقف والنصوص تأويلاً خاطئاً بحثاً عن الثغرات وإثارة للشبهات، كما فعلوا مع صحيفة المدينة، حيث شكك بعضهم في ثبوتها، وذهب البعض الآخر إلى تأويل وتفسير ما جاء فيها من البنود والمعاني تفسير خاطئاً يتمشى وأغراضهم الاستشراقية، وإعطائها أبعاداً لا تمت بصلة إلى الإسلام ومقاصده السمحة.

فالصحيفة ذات قيمة تاريخية، تضمنت أفكاراً دستورية وقيماً إنسانية، ومبادئ قانونية، رسخت لمبدأ الحقوق والواجبات، وبينت مفهوم المواطنة في أسمى

¹ - الواقدي، المغازي، ج:1، ص:131.

معانيه، مستوعبة لكل مكونات المجتمع، فعكست بحق تجربة المسلمين في بناء الدولة وتنظيمها داخليا وخارجيا.



الوحدة الإسلامية في صحيفة المدينة

اعداد عبدالناصر موسى ابو البصل

-رئيس جامعة العلوم الإسلامية العالمية

-عمان- المملكة الاردنية الهاشمية

معالم منهجية من السيرة النبوية

- السيرة هي التطبيق العملي لمسيرة الدعوة الإسلامية.
- السيرة مصدر لمنهج بناء المجتمع والدولة في ظل الاجتهاد.
- السيرة مصدر لاستلهام الحلول و(المبادرات) لإصلاح حال الأمة في الفتن والمدلهمات.

بين السياسة الشرعية وسياسة التشريع

- فن بناء الدولة ، وفن ادارة الدولة (علم)
- علم السياسة الشرعية له قواعد واصول مستمدة من (مقاصد الشريعة ومبادئها وروحها)
- سياسة التشريع ← السعي نحو الهدف ، السعي نحو الوحدة ونبذ الفرقة

التمهيد لصدور الصحيفة

- حال الدعوة قبل الهجرة (الاستضعاف والصدود والتنكيل ، الطائف ...)
- حال المدينة قبل الهجرة (الاوس والخزرج ، اليهود ، الحروب ، الزعامات ...)

○ الاسراء من مكة الى المسجد الاقصى والمعراج الى السموات العلى

○ سورة الاسراء (مكية) (قبيل الهجرة) تمهيد لبناء المجتمع

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾